خطوات على الشلال

إلى اسوان

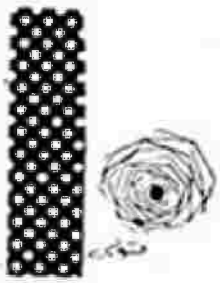

بقلم : محمود تيمور

من رحلة بعنوان « خطوات على الشلال » وصف فيهـا الكاتب سفرته الى موطن السد العالى ، وزيارته لما هنـالك من آثار ومعالم ومنشآت ٠

لما دعيت الى حضور « ندوة الكتاب » فى « دار الثقافة » بمدينة « أسـوان » وثبت الى راسى على الفور حكمة لبعض هواة الترحل ، يقول فيها : « اطيب الرحلات وأجداها هى التى يقوم بها المرء على ظهر دابة ذلول » ٠ والحق أن الرحلة اذا توافر لها التمهل والتؤدة أتاحت لصاحبها أن يستجلى المشاهد فى هينة ورفق ، ويستوعب الحقائق فى روية واستمتاع ٠ بيد أن هذه الحكمة على وجاهتها عسيرة التنفيذ من نواح عدة ، فى عصرنا الحاضر ، ولاسيما فى سفرتنا هذه ، ونحن نؤدى مهمة لاتحتمل التباطؤ والتسويف ٠

لا أقل اذن من اتخاذ وسيلة للسفر ، غير الوسائل السريعة الخاطفة ، وأن « قطار الصعيد » لمطية حرية أن تبلغنا ما نريد ٠

انه ركوبة طيبة ، فيها راحة للمسافر بالنهار والليل ، وفيها مجـال للتفرج والتعرف والاستجلاء ٠ فان « عربة النوم » تجمع لك فى مقصورتك كل أسـبـاب الطمأنينة لرحلة رخية هانئة ٠

ما ان قر على ذلك عزمى حتى نمى الى علمى أن المسافة بين «القاهرة» و «أسوان» تتطلب أربع عشرة ساعة أو تزيد فى « قطار الصعيد » ، على حين ان الطائرة تقطع هذه المسافة كلها فى نحو ساعتين اثنتين ٠

ولبثت أراجع نفسى لحظات ، ثم هتفت : لا شأن لى بالقطار ، فلن أقضى يوما وبعض يوم ، حبيسا فى « عربة نوم » !٠٠٠ دعنى أيها القطار المكسال ، لقد أصبحت ـ والزمن زمن سرعةواغتنام ـ تثير الاشفاق والرثاء ٠ أنت يا صـاحبى على أبواب المعاش ٠٠٠ وأما أنت يا « عربة النوم » فلا أستطيع أن أستبقى نفسى صريعا بين ذراعيك الدافئتين طوال ساعات وساعات ٠ وأخشى ما أخشاه أن يتسرب منك الخدر الى كيانى ، فاذا أنا أستمرىء التراخى وأركن الى الخمول ٠٠٠ ان السـاعات التى أمضيها فى صحبتك مجلبة للملل ، مبعثة على الضيق ، فالراحة والرفاهة ـ وان كانت

مستعذبة ـ اذا طالت وامتدت عادت مكروهة لا لذة فيها ولا متعة · نحن على موعد مع العمل الجاد ، والنشاط العارم ، والطموح البعيد ··· نحن فى رحلة استطلاع ، نتعرف فيها مجد ماضٍ غبر ، وجبروت حاضر تتجلى فيه صلابةالعزم ، وصرامة الجهد، وعبقرية الانشاء والتعمير ··· اليك عنى يا غانية الأمس الدابر ، ومرحبا بك يا غادة اليوم المشرق الجديد ... اليك عنى يا «عربة النوم» ، ومرحبا بك أيتها الطائرة!

ولمعت فى خاطرى مشاهد قديمة ، حين زرت تلك البقاع السياحية ، منذ ثلاثين عاما ونيف · لقد قطعت الرحلة من قبل فى ذهبية نيلية يجرها زورق بخارى ، وكنت يومئذ ضيف صديق كريم ، واستغرقت الرحلة خمسة عشر يوما · ومرة قطعتها بالقطار ، فاستغرقت ليلة وبعض نهار ، وهانذا اقطعها الآن على بساط الريح فى نحو ساعتين فهل تكتب لى سفرة قادمة الى موطن القراعنة متخذا من «الصاروخ» وسيلة انتقال ، فابلغ ماربى فى دقائق معدودات ؟

سبحانك مبدع الكون ، ومودع الانسان مواهبك الغالية ··· ماذا فى الغيب المحجب من أسرار وكشوف يفاجئنا بها العلم ، وتطالعنا بها الحضارة ؟ أتكون مطية المستقبل القريب أشعة الشمس أم ضوء القمر أم طاقة الذرة ؟ كل شىء محتمل الوقوع وكل أساطير الأولين مظنة التحقيق ، وأن الاحلام المغرقة فى الخيال لتصبح من الحقائق فى واقع الحياة .

دخلنا مطار القاهرة الدولى ··· مبنى شامخ الذرى ، أبهاء فساح ، ألواح مصورة تزين الجدران ، سلم متحرك ، مقصورات من زجاج ، أندية محدثة الطراز ، نشاط دائب يشعرك بأنك فى سوق دولية عامرة · فتابعت خطاى ، يملأ جوانحى فخر واعتزاز ·

واحتوتنا الطائرة المصرية الكريمة ، فما هى الا أن مضت بنا تصعد ، والبرد قارس ، والغيم ضارب ، وتحت أنظارنا رمال الصحراء كأنما هى بساط من ذهب ، وسرعان ما علت بنا الطائرة على مناط السحب فى أجواز الفضاء ، فاذا البساط الذهبى قد تحول الى غطاء من ذوب الفضة ، والسماء من حولنا باهرة الاشراق ، تمرح فيها أضواء الشمس · وبعد حين ظهرت الصوانى الرشيقة مرصوصة عليها ألوان الطعام ، وشغلنا بها وقتا نصيب غداءنا الشهى ، ثم عدنا نتطلع من الطاق ، فاذا غطاء السحب الفضى من تحتنا قد تهتك وتشعث ، فتراءى لنا ذهب الرمال المراق من جديد على أديم الصحراء ، ولا شىء غير الصحراء ··· فيا ترى أين النيل ، وأين النخيل ، وأين نضرة الوادى الجميل ؟ لم تطل نجواى ، اذ استبانت رقاع خضر سرعان ماتلاحمت ، حتى استطالت بساطا سندسيا يشقه مسيل النهر الفياض .

ولم نلبث أن شددنا أحزمتنا على خصورنا ، فالطائرة وشيكة الهبوط فى مطار « الأقصر » ، وخرجنا اليه ، فاستقبلنا مبنى عصريا مزهوا بجدته ورونقه ، كل ما فيه يوحى بأصالة ذوق ، وبراعة فن ·

وعدنا بعد قليل الى الطائرة ، تستأنف مضيها بنا الى «أسوان» ، وعادت الرمال الذهبية تملأ عيوننا سهولا وكثبانا ، فالرمال فى هذه الرحلة طابعها الغلاب ، وما اقربها شبها ـ لونا وغزارة ـ بالحمص فى موالد الاولياء الصالحين !

وتبدى النيل ، على حافتيه حاشيتان من خضرة زاهية ، وهو بينهما يتخايل ويتخطر ، ادلالا بقدرته على أن يحيل الارض الموات جنة فيحاء !

واخيرا نزلنا مطار « أسوان » ... وهو على نحو مطار « الاقصر » في الجدة والرونق . وخرجنا الى بابه ، فتقدم منا رجل ربعة في سمرة قاتية ، على محياه بشاشة ، يرتدى جلبابا بلديا سماوى اللون ، وعرض علينا سيارته . انه سائق يملك سيارة فاخرة ، يتخذها مورد رزق ، فركبناها على بركة الله ، وانسابت بنا على طريق معبدعريض ، تتسامق بجانبه اعمدةالمصابيح ، ثم رايناجموعات من العمارات حديثة البناء ، جميلة التنسيق ، اقيمت مساكن للعاملين بالسد . ولما تدانينا من خزان « أسوان » أخذت أعيننا منشآت كهربية جديدة ، لاستغلال القوى المائية للخزان في الانارة وغير الانارة من مطالب العمران . وقد ظلت تلك القوى طوال نصف قرن أو يزيد ، منذ اقامة الخزان ، تذهب هدرا ، لا ينتفع بها في شيء حتى عنى بها العهد الثورى الحاضر ، وبها تجدد شباب هذا الشيخ الوقور ، الخزان القديم ، ونهض بأعباء اقتصادية يواكب بها أعمال التعمير في جد ونشاط .

وتابعنا السير ...

وعلت أمامنا ضاحية مستحدثة ، شرعت السواعد الفتية من العمال تنشئها على طراز عصرى ، تلك هى « مدينة ناصر » التى أريد بها أن تتلقى المد العمرانى الزاحف من المدينة . وليكونن لها في القريب شأو بعيد .

وبلغنا « نيوكاتاركت » ـ وهو « فندق الشلال الجديد » ـ تحفة هندسية رائعة اشتركت في اعدادها وتشييدها كفايات مصرية صميمة ، فمثلت وقتا أمام هذا الصرح الرفيع ، أجتلى فنا وصناعة . وفتنت ناظرى لوحتان بارزتان على النمط الفرعونى ازدانت بهما طلعة الفندق . وطالت وقفتى أتملاهما حتى أنبهنى صوت رقيق ، هو صوت أمين الفندق المشرف على استقبال الزوار ، ينبئنى بأن الحقائب قد بلغت مستقرها ، وان حجرتى تناصب للقائى .

ولم يطل مكوثى بالحجرة ، فنزلت منها الى « ندوة الكتاب » ، والليل مرخ سدوله ، والمصابيح الوهاجة تبدد الظلمة ، وقد عقدت الندوة في «دار الثقافة» حيث يقام مهرجان « أسبوع الكتاب » .

دخلنا قاعة فسيحة ، بل قاعات وقاعات ، فيها تحتشد دور النشر ، يزاحم بعضها بعضا فى منافسة شريفة مجدية . كل دار تحتل ركنا تعرض فيه كنوز العقول والاذهان .

ان الكاتب اليوم ليستشعر الفخر والعزة بان «الكتاب» لم يعد زخرفا كماليا كوردة تزين الصدر ، بل أصبح غذاء طيبا تعنى الدولة به وتعتد ، ولا تفتأ تكفل له عوامل التنمية والاتقان .

وجزت بأركان المعرض ، كأني ازور قادة الفكر واعلام العلم والأدب ، في صوامعهم الانيسة ، وقد امتلأت أرجاؤها بعبق زكى ينعش النفس ويمتع الروح .

وانتقلنا الى قاعة المحاضرات ، ولك أن تسميها مسرحا للتمثيل ، ومثابة للعرض السينمائى ... قاعة اكتملت لها وسائل التحضر فى توفير الراحة للاستماع وللاداء على السواء .

والتقينا هنالك بنخبة من شباب « أسوان » المثقف ، لمسنا فيهم براعم متفتحة واعدة بمستقبل مشرق ، وجلسنا اليهم ساعة أنيسة ، متنوعة كانت فيها أسئلتهم متتابعة متنوعة ، تشهد بيقظة وعي ، ولطف ملاحظة ، وشغف باستكشاف أسرار المشكلات التى تعن لخواطرهم فى قضايا الأدب والفن والاجتماع .

وكان يومنا الثانى فى طوفة جامعة للمدينة ، فزرنا « فندق الشلال » القديم وهو وصنوه الجديد متصلان بحديقة جميلة متدرجة ، تبهج العين بألوان أزهارها وأشجارها ونخيلها ، وما اكتست به أرضها ، وماتناثر عليها من مقاعد وظلات . ومن هذه الحديقة لتنحدر الى مرسى الزوارق البخارية والشراعية على ضفة النيل فى انتظار المتنزهين والمتنقلين من السياح .

وفى أعلى مدرج الحديقة مستشرف لطيف يقضى فيه الزوار أوقات النهار ، مستمتعين بلوح رائع ينبسط أمام العيون ، ذلك هو اللوح الذى نمقته يد الطبيعة الفنانة ، يلوح فيه النيل الساحر وقد مد أجنحته يمنة ويسرة ، فاذا المجرى خلجان ومسارب وجزر ، واذا هو فيه صخور وجنادل ، والأشرعة البيض فى جيئة وذهاب ، كأنها حمائم سابحة على متن الماء ، وعن كثب جزيرة « أسوان » العتيقة تطل منها خرائب الأمس البعيد ، وفى بقعة خضراء وراءها تبدو دار « البيجوم أغا خان » بيضاء ناصعة ، وخلف ذلك صحراء مترامية يرتفع على قمة فيها ضريح الزعيم الاسماعيلى الكبير ...

هذا الموقع الفريد على روعته وفتنته لا تطول جلستك حياله ، فالوقت يمر ، وما جئنا لنتفقه استدفاء بالشمس ، أو استرخاء على الارائك ، ولكننا قدمنا للتعرف والتطلع والاستخبار ، فهيا بنا الى قلب المدينة نجول .

مضينا الى رصيف النهر « الكورنيش » ، وكلما أوغلنا فيه شاهدنا كيف الصراع بين الجديد والقديم ، هى حرب طاحنة شنتها روح التطور والتجديد ، على روح التخلف والجمود ، ففى كل مكان يحل المستحدث المبتكر محل العتيق البالى ، وانها لحرب حامية الوطيس ، ولكنها صامتة لا تسمع فيها جعجعة ، بل ترى طحنا : أطلال تتداعى ، وأنقاض تتزايل ، وفى مكانها تقوم منشآت تتسامى فى عزة وجلال .

يسير معك رصيف النيل مسافات قاصية ، وعليه من باسق الشجر صف ممدود كأنه حرس يؤنسك على الطريق . وينتهى بك عند منطقة عامرة بمنشآت عمرانية كلها من مفاخر البناء العصرى : مسجد تعلو مئذنته المربعة ، ناد للتجديف ، حوض للسباحة ، دار للثقافة ، متاجر تنافس أحدث المتاجر فى الغرب — هذا الى المعاهد والمشافى ودور الضيافة . انها حقا مجمع بنائى شامل ، أو هى وحدة عمرانية نموذجية لمدينة المستقبل المرموق .

أنت تسابقين الزمن يا مدينة العصر القديم ، ولكأنك موميا ء نفضت عن عينيها سبات السنين ، ونهضت من ناووسها الحجرى تطرح عنها الفاف الماضى السحيق ، فسرت فيها حيوية الحاضر ، ودبت فيها روح العصر الجديد ، وما هى الا أن اكتمل خلقها ، متوردة الوجه ، خفاقة القلب ، فارهة الشباب .

هكذا لاقيناك يا « أسوان » الفتية المتلألئة ، ولكن من ورائك « أسوان » أخرى تستتر فى حياء وخفر ، هى « أسوان » القرن الماضى ، ما برحت تتخذ المنزر، وتسدل

على وجهها التمام ، وتحيا في جو عبق بالبخور : بخور الشرق الأصيل ، يثير غوامض الأخيلة وغرائب الأحلام .

أضافتنا تلك المدينة الشرقية ، وقتا ، فذرعناها طولا وعرضا ، حارات وأزقة متداخلة ، يسلمك بعضها الى بعض ، من حيث تدري ولا تدري . فأنت هنا لك ملامح فقد ابرته المغنطيسية التي يسترشد بها في معرفة وجهته ، فراحت مركبه تخوض الموج على غير هدى ، أو كأنك عابر صحراء ضل الطريق ، فانطلق يضرب في رمال متشابهة ، لا يبلغ بها غاية ، ولا يعرف معها من قرار . أو كأنك في تلك المتاهة المعروفة في الاعيب الملاهي ، تبدأ من نقطة ثم تدور وتدور وتحسب آخرا انك انتهيت الى باب الخروج ، واذا أنت حيث كنت ، ولكنك على الرغم من التيه والضيعة في مجاهل الحارات والازقة لا تحس من وحشة ولا ضيق ، بل تأنس بما يحوطك من طريف المشاهد في سوق عامرة بألف صنف وصنف ، أو مولد حافل بالمواكب والطبول ، فتود لو طال بك السير ، وتنأت عنك آخرة المطاف .

ولاحت لنا فرجة طالعنا فيها رصيف النهر العظيم ، فقصدنا اليه نكمل جولتنا معه ، وآثرنا ان نعود الى الفندق راجلين . وماكدنا ندفع بخطانا حتى استرعى نظري مايثير الفضول : مركبة خيل لها حصان فرد ، ومازال هذا الضرب من المركبات له شأن في « أسوان » خاصة ، وأظنه بات جزءا لا يتجزأ من معالمها الأثرية الباقية على وجه الزمان .

ورأينا حول المركبة جمعا من السياح ، هم أسرة واحدة : أب وأم وصغار ، عدد النمل ، يتأهبون للركوب . ولكن اني لهذا الصندوق الخشبي الأثري ان يستوعب هؤلاء جميعا ؟ وما لبثت المعجزة أن تحققت أمام جمهرة من السابلة تكاثروا ليستمتعوا بذلك المشهد الألعباني العجيب . وكان من الطبيعي أن يتبوأ الأبوان مكان الصدارة ، تاركين لكل من غلمانهم وبناتهم أن يختار المكان الملائم له ، وفقا للقانون الغاشم : حق الاقوى . ومانشبت المعركة حتى انتهت بسلام . وشاهدنا المركبة وقد نبتت على جوانبها وفي أنحائها براعم متحركة أوشكت أن تخفي هيكلها عن الانظار ، ففي كل شبر منها مخلوق غائص في مكانه ، أو متشبث به ، أو متسلق له ، حتى ان كومة البرسيم تحت قدمي الحوذي لم تضق بغلام أو غلامين .

ورافقنا المشهد الطريف ، فتعالت اصواتنا نحن الجمهور ضاحكين ، واذا المركبة بمن فيها تشاركنا في الضحك ، والكل يتمايل طربا ، حتى الحوذي المهشم ، الا مخلوقا واحدا ترفع أن يقاسمنا ذلك المرح الشامل ، وأعني به الحصان الهزيل ، وهو مشدود الى عربته بأحزمة من جلد ، مغلوب على أمره ، لا يملك الفكاك . لقد كان انسكين يتلفت حواليه ، ليرمق الجمع الفرح المهتاج بنظرات تنطوي على صبر واذعان . ولبثت مليا أرمق ذلك المخلوق التاعس ، وأنا احس التوجع له . انه ماثل في وقفة تعبر عن نبل حزين ، فهو لا تختلج فيه عضلة ، ولكن تستبين على محياه كآبة خرساء .

شد ما رقت نفسى لهذا الحيوان الأعجم ، ووددت لو تقدمت اليه أقبل غرته ، وأناجيه بقولى :

لا تأس أيها الصديق الكريم ، فأنت فى محنتك عظيم أى عظيم • احتمل الثقل الذى هبط عليك ، وسر به فى شهامة واقدام • واعلم بأن الحياة أعباء وأحمال وكلنا من حملة الاثقال ، والبطولة تتجلى فى شجاعة الصبر وقوة الاحتمال !

وكأنما بصر الحيوان بى ، وكأنما فهم ما أناجيه به ، فقد بانت فى نظرته لمحات شاكر مستجيب ، وانبسطت أساريره ، ولاحت عليه طمأنينة وهدوء ، وصاح الحوذى المهشم بصوته المتحشرج صيحات لم يفهمها الا حصانه ، فتحركت المركبة ،واشتدت الجلبة ، ورفع الحيوان رأسه ، وأخذ من نظرته ، وسار متخطرا على الطريق ، وكأنه حصان فرعون يجر عجلته الحربية الى ساحة القتال !...